الفروسية العربية تواجه الفرسان الصليبيين

الدكتور
عبد الكريم إبراهيم الجنابي

المقدمة

نادر هي تلك الحالات التي تشبه حالة الأمة العربية في صراعها الطويل والحضاري والدائم مع التحديات التي فرضت عليها... وأنذر من ذلك وجود حالة أخرجت أمة أخرى، غير هذه الأمة، من مثل صراعها هذا مع تلك التحديات دون أن تفنى أو تنطمس هويتها الحضارية وتنطمس معالمها القومية فتصبح امتداداً هامشياً أو ذيلاً أعدائها الذين فرضوا عليها ما فرضوا من التحديات..

فحضارة هذه الأمة، وهي الحضارة العربية الإسلامية، قد تبلورت واكتسبت طابعها المتميز وسماتها الخاصة، بعد سنين غير قليلة من ظهور الإسلام وما أنجزته الفتوحات العربية على الجبهة السياسية، وما تم للمنطقة من توحد، أو تقارب عقلي وفكري تم انجازه بعد أن اكتمل لأهلها التعريب... لكن ذلك الميلاد لم يكن نقطة البدء، وانما كان طوراً جديداً ومتميزاً في تطور حضاري قديم، فشعوب هذه المنطقة جميعاً، بعقائدها الدينية المختلفة، وأطوار الحضارة المتميزة، قد أسهمت أسهاماً خلاقاً في صياغة هذه الحضارة العربية الإسلامية ومن هنا كانت الثمرة الجديدة وهي الحضارة العربية الإسلامية محصلة للفكر العربي والمجدد الذي تمثل في الإسلام، وللقيم والأفكار التي ظلت صالحة للنفع والعطاء والاستلام من مواريث الأمم والشعوب التي دخلت في الدولة التي صنعتها الفتوحات... الأمر الذي جعل هذه الحضارة الجديدة حلقة في سلسلة قديمة وعريقة، سبقتها بدايات أي نشأت لأية حضارة أخرى على هذا الكوكب الذي نعيش

فيه، الحضارة العربية تتميز بطابعها العالمي وعطائها الإنساني اللذين تمثلا في الدور الذي قامت به عندما كانت لأمتها كلمة مسموعة ودور بارز في الساحة الدولية، وهو اختبار نجحت فيه، يترجم عن خصائص ومميزات قد لا تكون في حضارات أخرى ويقوم شاهدا على أن ما حدث بالأمس ليس بعزيز ان يحدث في الغد، إذا توافرت الشروط ولاءمت الظروف وأعانت الملابسات..رغم الظروف والتحديات التي فرضتها على العرب صراعات العصر الذي نعيشه، أن تلك التحديات، والصور المأساوية التي صنعتها بواقعنا الراهن، ليست جديدة على هذه الأمة، فلها معها تاريخ، ولها في تراثها تراث، ومع ذلك وبالرغم منه صنعت، وأعطت ما أعطت وتحدت من وما تحدت.. وظلت قائمة ومستمرة، بل وحية... بل لعل في تداعي الأعداء عليها، واستمرارهم في التداعي والاعتداء، ولعل في عنف التحديات وكثرتها: السبب والشاهد والدليل على الآصالة، والصلاحية الدائمة والمتجددة للعطاء الدائم والمتجدد... فقط علينا ان نعي أنه إذا كان أعداء هذه الأمة، بما فرضوا ويفرضون عليها من تحديات يريدون مسخ هويتها الحضارية المتميزة، والحيلولة دون امتلاكات شروط العودة مرة أخرى الى الساحة الدولية والإنسانية، فعلينا أن نعي قيام صراع هذه الأمة، تاريخياً مع التحديات التي فرضها على أسلافنا إسلام هؤلاء الأعداء، حتى نفتح الطريق لامتنا كي تصنع اليوم وغداً ما يجعلنا، بحق، خير خلف لهؤلاء الأسلاف العظام. ولقد يكون مفيداً بل وضرورياً أن نضع أمام العقل العربي المعاصر إجابة موضوعية على هذا السؤال لماذا كانت: قديمة، وشديدة، ومتنوعة، ودائمة تلك التحديات التي فرضها أعداء كثيرون على هذه الأمة عبر تاريخها الطويل فالفرس منذ قبل الإسلام، بل ومنذ ما قبل الميلاد، عاثت جيوشهم في المنطقة، وعبثت أكاسرتهم بمقدراتها وخصائصها.. وبلغوا ذلك قلب مصر حينا وأرض اليمن أحياناً، وسواد العراق في أغلب الأحايين.

والإغريق والروم البيزنطيون صنعوا ذلك أيضاً، فشملت سيطرتهم سواد المنطقة حيناً، واستقرت بمصر والشام في أغلب الأحيان، وحتى الأحباش من بني يكسوم، صنعوا ذلك مع اليمن، بل وكادوا أن ينجحوا حتى في احتواء القلب الصحراوي المقفر وسط شبه الجزيرة وهو الذي ظل

بمعزل عن احتواء الغزاة وسيطرة المحتلين كادوا أن ينجحوا في ذلك في غزوة الفيل. هكذا كانت التحديات قديمة وهكذا بلغت.

لقد كانت هذه الأمة مهبط وحي الديانات السماوية الكبرى الثلاث.. اليهودية المسيحية، الإسلام، لقد عبرت هذه الشرائح حدود الوطن العربي ، واعتنقتها شعوب أخرى ذات حضارة غير عربية، وطبعت هذه الشرائح بطابعها الحضاري المتميز، وعلى سبيل المثال فأن أوربا لم يغير من طمعها في هذا الوطن تديناً بالمسحية، التي جاءت من هذا الوطن ذلك لن أوربا ذات حضارة متميزة بطابعها المادي في الأساس، كما يقول أمام المعتزلة قاضي القضاة، عبد الجبار بن احمد (٤١٥هـ-١٠٢٤م) فأن النصرانية عندما دخلت روما لم تنتصر روما لكن النصرانية هي التي ترومت... فالقيصر الوثني كان يحكم بسلطان الحق الإلهي أصبح رأس الكنيسة، وكما يقول البيروني (٣٦٢-٤٤٠هـ/ ٩٧٣-١٠٤٨م) فأن القيصر (قسطنطينوس)(٣٣٧-٢٧٤م) المظفر منذ تنحر [١]... وأيضاً فالأتراك العثمانيون(والعرب يسمونهم الأروام!)[٢] اعتقوا الإسلام ومن قبلهم صنعوا ذلك المغول والتتار. إذن... فنحن أمام سبب آخر، أساسي وجوهري وعند ما تضاف إليه أسباب الموقع، والثورة، وما ماثلها، نضع يدنا على مجموعة عوامل التي جعلت من هذا الوطن وهذه الأمة مطمع الغزاة دائماً وأبداً وموضع التحديات الكثيرة المتنوعة والشديدة التي فرضها الأعداء على أمتنا تاريخاً طويلاً وهذا السبب الذي يعطى للصراع هذه الأمة مع أعدائها طابعاً حضارياً رغم تعدد الأعداء ، أن أعداء هذه الأمة هم الذين فرضوا ويفرضون عليها التحديات الأمس واليوم، أذن... فنحن أمام حضارة عريقة... وذات طابع متميز... وسبق ان تخطت الحدود السياسية والقومية لأمتها فنهضت بدور رائد وملحوظ في العطاء الحضاري الإنساني... ولهذه الحضارة أمة كبرى، تؤلف بينها قسمات خاصة لقومية واحدة، ولهذه الأمة، غير هذه الحضارة، إمكانيات كثيرة، الأمر الذي ينبئ، على نحو صادق ومحقق، أن تحقق شروط معينة سيجعل هذه الأمة تنهض من مرقدها، لتتحرر فقط ، بل ولتسهم حضارياً في الساحة الإنسانية من جديد، ولتمارس في هذه الساحة، حضارياً أيضاً دوراً هو أشبه بدور(الضمير)ومن هنا كان الحرص، الرفيق والعنيف، الخفي والمعلن، من أعداء كثيرين يخشون المزاحمة، وينفرون من

(الضمير).. حرصهم على أن تضل هذه الأمة أسيرة في مرقدها، تشدها الى الخلف ما فرضوه عليها من تحديات.

ومن هنا أيضاً كانت أهمية اكتشاف هذه الأمة للقانون الذي حكم صراعها التاريخي ضد التحديات التي فرضها على أسلافها أسلاف هؤلاء الأعداء... لذلك أن تغير الصراع، وتطور أسبابه وملابساته، وتبدل بعض الفرقاء والأطراف فيه، لا ينفي الوحدة والعموم في القانون الذي حكم أدواره وسيطر على أحداث حلقاته على مر التاريخ.

وبالطبع، فأن الوصول الى اكتشاف هذا القانون مرهون بالوقوف أمام أهم وأخطر ما واجهته هذه الأمة، عبر تاريخها من تحديات.

الفروسية العربية تواجه الفرسان الصليبيين

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغير بطول العيش إنسان ؟

هذا المعنى، الذي عبر عنه الشاعر العربي بهذا البيت، هو الذي نجده عند أبن خلدون(٨٠٨-٧٣٢هـ /١٣٣٢-١٤٠٦م)، في فلسفة التاريخ والعمران، عندما يتحدث عن دورات الدول والحضارات ولادة، فشبابا، فترفا وشيوخ واضمحلالاً..[٣].

ثم.. ماذا حدث للأمة العربية، وحضارتها، ودولتها بعد أن صارع التيار(العقلاني-القومي)[٤] خصومها جميعاً: الشعوبيين، وأصحاب العصبية العربية الجاهلية، وأصحاب الشرائع والملل والنحل غير الإسلامية، فأحرز في صراعه هذا العديد من الانتصارات، و(سك) لهذه الأمة(عملتها) الحضارية وعلى أحد وجهيها سمتها القومية الواحدة، وعلى الثاني الطابع العقلاني لحضارتها التي بلغت قمة التأثير والعطاء والازدهار؟... ماذا حدث لهذه الأمة، وحضارتها، ودولتها بعد ذلك؟[٥]

نحن نعلم أن التيار(القومي العقلاني)[٦] قد كسب جولة كبرى في صراعه مع الشعوبية والثنوية قبل عشر سنوات من انتهاء حكم هارون الرشيد، بنكبة(١٨٧هـ-٨٠٣م) ومنذ ذلك التاريخ اقترب التيار(القومي العقلاني) من الدولة وجهازها [٧]... وفي عهد الخلفاء العباسيين الثلاثة:

المأمون(١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م) والمعتصم(٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م) والواثق(٢٢٧-٢٣٢هـ/ ٨٤٢-٨٤٧م) بلغ التيار(القومي العقلاني) مرحلة امتلاك قمة جهاز الدولة- فلقد كان هؤلاء الخلفاء على مذهب المعتصم فاستخدمه في نشر فكريته ومذهبه، وشهد عصر هؤلاء الخلفاء قمة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وأروع صفحاتها، وأنجزت فيه أعمال حضارية وفكرية أساسية، آتت أكلها فيها بعد ذلك من السنوات.. ونحن نعلم أن المعتزلة كانوا، في النشأة والتطور، تياراً سياسياً لهم جمهور واسع وعريض، ولكن الاهتمام المتزايد بالمباحث العقلية، وخاصة بعد ترجمة الفلسفة اليونانية، قد تحول بهم، أكثر فأكثر، الى تيار فلسفي، و(فلاسفة الهيبية) ففروا، بالقياس الى الجمهور) و(العامة)، يمثلون(الاستقراطية الفكرية) الى حد كبير أما خصوم المعتزلة، من الفقهاء وأهل التقليد، ممن يقفون عند المأثورات وظواهر النصوص فأنهم كانوا أقرب الى مستوى (العامة) وفكر (الجمهور). ومن هنا شعر المعتزلة، رغم وجود السلطة في أيديهم، بأن قوة خصومهم، المستندة الى (العامة) قد غدت تهدد سلطانهم الفكري وتقود السيطرة المذهبية التي يريدون.. وبدلاً من حل هذه المعضلة عن طريق حصر الجدل حول (الالهيات) و(المقولات الفلسفية) في إطار (الخاصة)، وافتتاح المجال لحرية الخلاف والاختلاف ولسعي فريق من المعتزلة الى صبغ المجتمع كله بمذهبهم العقلاني المتقدم والمستنير، واستخدموه لذلك: (العقل) و(السلطة) معاً.. وعندما حدثت بعض التجاوزات ووقع بعض الاضطهاد على نفر من خصومهم، وخاصة بصدد القول (بخلق القرآن) ولجأ خصومهم الى (العامة) واستنفرت للدفاع عن عقائدها الموروثة ومفاهيمها الشائعة وتطوراتها البسيطة، ثم انتقلوا بها من مواقع الدفاع الى مواقع التربص والهجوم [٨].

فمثلاً... يشكوا الجاحظ من قلة عدد العوام (في صفوف المعتزلة، وكثرتهم في معسكر الخصوم)[٩] وينبه الى أن خصوم المعتزلة، من الفقهاء، قد جمعت بينهم وبين العامة: النفرة من الفكر الفلسفي العقلي المركب، والاستنامة الى ظواهر النصوص وتبسيط الأفكار وتسطيحها، من مثل اختيار(التشبيه)من(التنزيه والتجريد).. الخ كما ينبه الى أن هؤلاء الخصوم قد استهدفوا قيادة (العامة) واستخدامها في تحقيق طموحات سياسية فهم

بعبارته قد(أملوا أن ينالوا بذلك بشاشة العامة، حتى تستوي لهم الرياسة على الناس ورعاعهم)[١٠] وكذلك يحذر أعلام المعتزلة وعلمائها من الافتراء بكثرة (المهادنين والمسايرين) لأن ذلك لا يعدوا خلق النفاق ومظاهرهُ ولم ينقص من عدد الخصوم (فأن عدد الجماجم على حاله وضمير أكثرهم على ما كان عليه والذين ماتوا قليل من كثير ونحن لا تنتفع بالمنافق ولا نستعين بالمرتاب، ولا نشق بالجانح وان كانت المبادأة قد نقصت فأن القلوب أفسد ما كانت... وهم اليوم الى المنازعة أميل وبها أكلف [١١] وعندما وضحت للمعتزلة، ودولتهم أن قيادة خصومهم للعامة تتأكد استشعروا الخطر (فالعوام إذا كانت نشراً-(متفرقة)- فأمرها أيسر، ومدة هيجها أقصر، فإذا كان لها رئيس حاذق ومطاع مدبر، وأمام مقلد، فعند ذلك يموت الحق، ويقتل المحق)[١٢] (وحتى لا يموت الحق ولا يقتل المحق) كما قال الجاحظ ارتكبت المعتزلة ودولتها خطأها الأكبر، فاستخدمت جهاز الدولة في محاولتها (إقناع) الخصوم بما لها من أفكار وآراء واما القلاقل المنتظرة والسخط المتوقع والغضب الموشك على الانفجار، من هذه الأزمة الداخلية في المجتمع، فان الدولة سعت الى زيادة الاعتماد على القوة العسكرية –الجيش- واتخذت الخطوات الى تنمية حجم هذه الأداة من أدوات الحكم والسلطان وأيضاً.. كانت الدولة العربية الإسلامية قد بلغت يومئذ أقصى حدودها في الانتشار والاتساع فبعد ان ملك العرب من الأندلس، على حدود فرنسا الغربية، حتى الحدود الغربية للصين، شرعوا يهددون جنوب أوربا وينتزعون منها جزرهم في البحر الأبيض المتوسط.

- ففي (١٩٥هـ- ٨٠٩م) فتح العرب واحتلوا جزيرة (كورسيكا)
- وفي (١٩٦هـ-٨١٠م) فتحوا واحتلوا جزيرة (سردينيا).
- وفي (٢١٠هـ-٨٢٥م) فتحوا واحتلوا جزيرة (كريت).
- وفي (٢١٢هـ-٨٢٧م) بدأ فتحهم لجزيرة ٠صقلية)[١٣].
- وفي (٢٥٦هـ-٨٧٠م) بدأ فتحهم لجزيرة (مالطة).

وفي تلك الحقبة تجاوزوا فتح الجزر وحروب البحر، فاقتحموا الجنوب الأوربي في ايطاليا، ونزلت جيوشهم (٢٣١هـ-٨٤٦م) بميناء (أوستيا) وهو المرفأ البحري لمدينة روما، واستمر تهديدهم لها سنوات ثلاث، بكل ما عناه ذلك من اقتحام المعقل الذي ظل طويلاً مركز الخطر

الروماني الذي احتل الشرق وأقام لنفسه الدول بالشمال الأفريقي ومصر والشام، ثم استخدم نصرانية الحبشة في محاولة القضاء على البقعة العربية التي أفلتت من سيطرته، بمحاولته غزو مكة عام الفيل، بعد ان احتلت اليمن ردحاً طويلاً من الزمان وحتى بعد انحسار هذا التهديد العربي لروما (٢٣٥هـ-٨٤٩م) عادوا فحاولوا غزوها (٢٥٨هـ-٨٧٢م) واستمر تهديدهم لها ولايطاليا حتى (٣٠٤هـ-٩١٦م) وأثناء تلك الفترة فرضوا الجزية على روما، وسجل التاريخ أن البابا يوحنا الثامن (٨٨٢-٨٧٢م) ظل لعامين، يدفع للعرب جزية مقدارها ٢٥،٠٠٠ رطل من الفضة [١٤].

وبقدر ما كان ذلك مظهر بأس وعنوان قوة، فلقد كان حملاً ثقيلاً على القلب، جعل المركز والعاصمة وجهاز دولة الخلافة يجملون ما هو أزيد من الطاقة الطبيعية لهم، وزاد من ثقل العبء أن الكثير من أطراف هذه الدول لم تكن قد تعربت تماماً بعد، ومن ثم فلم تكن (القومية الواحدة٩ بقسماتها الواحدة ولا (الحضارة الواحدة) بسماتها المتحدة قد غدت لهذه الأطراف خيوطاً وشرايين تؤلف بينها وبين السلطة المركزية والقطاع الذي تعرب من البلاد، فكان ٠جهاز الدولة) هو الرباط الوحيد بين القلب وهذه الأطراف، الأمر الذي زاد الحمل ثقلاً على سلطة الخلافة المركزية في ذلك التاريخ ولذلك، فلم يكن غريباً وأن استغربهُ البعض أن تظهر في قمة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وفي لحظات الذروة من تألق سمتيها القومية والعقلانية، أن تظهر واضحة بل ومحزنة ظاهرة التجزئة والانقسام واستقلال الأمارات والولايات عن السلطة المركزية وخاصة في الأقصى والأطراف.

فغير الأندلس التي استقلت بها الأمراء الأمويون منذ أن تأسست الدولة العباسية، في المشرق، وغير قبرص التي استردها البيزنطيون قبل خمس وعشرين عاماً من نهاية القرن التاسع الميلادي، انتشرت وتناثرت على خريطة أطراف الإمبراطورية دويلات الأسر التي استقلت، رسمياً أو عملياً، بحكم العديد من الأمارات من دون خلفاء بني العباس في بغداد [١٥].

- فبنو ساج: في أذربيجان ومراغة وداغستان.
- والأدراسة: في مراكش وغربي الجزائر.
- والأغالبة: في شرق الجزائر وتونس وطرابلس.

- والبربر والتبو: في شمالي الصحراء الأفريقية.
- والنوبيون: في جنوب مصر.
- والطولونيون: في مصر والحجاز وعسير والشام.
- وبنو زياد: في زبيد.
- وبنو جعفر: في صنعاء.
- وبنو رسن: في صعدة.
- وبنو الجندي: في عمان.
- والزنج: في البصرة.
- والعلويون: أبناء علي – الزيدية- في طبرستان.
- والصفارية: في سجستان وأفغانستان.
- والطاهرية: في مرو ونسيابور.
- واحمد بن أسد: في ما وراء النهر.
- والسامانيون: في نجارى.

تجزئة وانشقاقات قاربت العشرين شهدها ذات القرن الذي شهد ذروة الازدهار للحضارة العربية الإسلامية.

دولة الخلافة تزيد حجم القوة العسكرية

وأمام هذا الخطر، أيضاً، وجدت دولة الخلافة نفسها مدفوعة الى زيادة حجم القوة العسكرية –الجيش- فاتخذت في هذا السبيل خطوات وخطوات.

وكانت الحضارة والرفاهية والازدهار وطيب العيش ولين الحياة قد ابتعدت بالعنصر العربي الأول عن خشونة الجند التي عرف بها في عصر الفتوحات، يوم أن كان العرب جيشاً وأشبه ما يكونون (بالاسبارطيين) كما أن أحلام الموالي، ذوي الاتجاه الشعوبي كانت لا تزال لبقاياها حياة، الأمر الذي صرف الدولة عن أن يكونوا هم القوة الأساسية في الجيش الذي سعى الخليفة المعتصم الى تكوينه كي يواجه به (أزمة القلب) وانسلاخ الأطراف وما خلفها من مخاطر واحتمالات.

لقد كان المعتصم ضمن الجيش الذي أنشأه، فرقة (الجند المغاربة) [١٦] من موالي حوف مصر وحوف اليمن وحوف قيس، وفرقة (الفراغنة) من أهل فرغانة... وفرقة (الاشروسية) من أهل اشروسنة. ولكنه سعى فأرتكب أعظم أخطاء الدولة في عصره عندما أخذ يكثر من شراء المماليك الأتراك،

ويقيم لهم المعسكرات ويجعلهم القوة الكبرى والرئيسة في جيش الدولة... حتى لقد أقام لهم مدينة كاملة وجديدة هي (سامراء)[١٧] لقد ظن المعتصم أنه باتخاذ الجند الغريب حضارياً وقومياً عن المجتمع سيحصل على أداة القمع الأسهل قياداً والتي لا أمل لها في السلطة ولا مصلحة في الصراعات الناشبة من حوله وأنه بذلك سيقيم الضارية التي يحافظ بها على التوازن بين العرب والموالي وغيرهما من العناصر.

والأجناس المتضاربة والمتنافسة، ولكن تضخم هذه القوة العسكرية الجديدة سرعان ما جعلها مركز ثقل وقوة جذب ومصدر توجيه. فالمدينة التي بنيت لها معسكرات تابعة للعاصمة بغداد تحولت منذ (٢٢١هـ-٨٣٦م) الى عاصمة للدولة، انتقلت إليها الخلافة، وأصبحت بغداد تابعة لها وهؤلاء الجند الذين أرادهم المعتصم قوة بيد الخلافة، سرعان ما أصبحت الخلافة لعبة بيدهم يولون من اطاع ويعزلون من عصى، بل ويسجنون ويقتلون من يتمرد عليهم وعلى أوامر المماليك الأتراك.

وبسبب هذه المؤسسة الجديدة والكبيرة هي: جند وجيش بعيدة عن الاهتمامات الحضارية. وبسبب غربتها من العروبة وتخلف قادتها، بداهة، عن نمط التفكير العقلاني والفلسفي كانت أميل الى (العامة) وأمعن في عدائها للفكر الفلسفي والآراء المستنيرة والتيار العقلاني... هكذا تحولت الأداة التي أرادها المعتصم حصناً للحضارة العقلانية ضد (العامة) تحولت الى حصن للفكر المتخلف انطلقت منه (العامة) وفقهاؤها ليصيبوا ذلك المد الحضاري العقلاني بالتوقف، فالجمود، فالتراجع، وذلك بمجرد استيلاء الخليفة المتوكل (٢٤٧-٢٣٢هـ/٨٤٧-٨٦١م) على السلطة، بعد موت الخليفة الواثق [١٨].

لقد رضيت العامة، وفقهاؤها من النصوصيين، لقصر نظرها، عن هذا الانقلاب.. ولكن سرعان ما أفاقت على صوت ناقوس الخطر الأشد... فلقد استأثر الجند الأتراك بتميز المجتمع المادية، بعد أن أحكموا قبضتهم على سلطة الدولة السياسية... وتركوا العامة وفقهاؤها بزوال دولة المعتزلة وانحسار فكرها العقلاني ويتشفون في خصوم الأمس الذين أصبحوا رهن المنافي وغيابات السجون لقد عم الاضطهاد، منذ عهد المتوكل كلاً من المعتزلة والعلويون ومن لم يوضع في السجن من قادتهم جرد من (حقوقهم

المدينة) وسلبت حقوقهم الاقتصادية وأصابهم الكثير من التميز في المراسم الاجتماعية والعلاقات الإنسانية [١٩].

وفي ذلك فضلاً عن تجريم فكر المعتزلة وتحريمه بمراسيم هي أشبه ما تكون بقرارات المجامع الكنسية الكهنونية، الغربية عن روح الإسلام [٢٠].

ولقد تصاعدت سطوة قادة الجند الأتراك فبلغت الذروة عندما قتلوا الخليفة المتوكل في ٣شوال سنة ٢٤٧هـ/١٠ ديسمبر سنة ٨٦١م) فأصبح منصب الخلافة لعبة مستباحة، يتناولونها بالغدر والتوليه، وأيضاً بالسجن بل وبالسم والقتل لمن غضبوا منه وعليه من الخلفاء.

وبعد المتوكل ولي الخلافة المنتصر بالله محمد بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد (٢٤٨-٢٤٧/٨٦٢-٨٦١م) وكان شاباً في الخامسة والعشرين من عمره، ذا طموح لاستعادة سلطات الخليفة والعودة بالخلافة... وبعبارة المسعودي (فلقد كان المنتصر واسع الاحتمال راسخ العقل كثير المعروف راغباً في الخير سخياً أديباً عفيفاً وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق وكثرة الإنصاف وحسن المعاشرة بما لم يسبقهُ خليفة الى مثله [٢١].

وسار المنتصر في جمهور الناس، سيرة العدل والإنصاف فحقق الكثير من الأهداف التي أبتغاها من وراء هذا الإنصاف الجديد، وبعبارة المسعودي فأنه (أظهر الإنصاف في الرعية، فمالت إليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة الهيبة منها له)[٢٢] ولقد أراد أن يستثمر تلك القوة التي حققها له (السلام) مع المعارضين والثوار والعدل مع الرعية في تحرير جهاز الدولة من استبداد قادة الجند الأتراك.. فطلب الى (وصيف) وهو احد اثنين تركزت بأيدهما السلطة والسلطان أن يترك العاصمة على رأس جيش للقتال الروم... وأسر الى خاصته أنه عازم على التخلص من قادة الجند الأتراك وعندما أبحر (بفا) ضد (وصيف) وشريكه يختال في قصر الخلافة ومن حوله الأتراك قال للفضل بن المأمون (قتلني الله ان لم اقتلهم وافرق جمعهم)[٢٣] هؤلاء قتلت الخلفاء، ولكن الأتراك عاجلوا الخليفة المنتصر قبل أن يعاجلهم وكما يقول المسعودي (لما نظرت الأتراك الى ما يفعل بهم وما قد عزم عليه وجدو منه الفرصة) بأن أوعزوا الى طبيبه طيفور فقتله باستخدام مشرط مسموم في إجراء (حجامة) له فلقى مصير المتوكل في سنة ٢٤٨هـ بعد

خلافة لم تتعد ستة أشهر [٢٤] وبعد التخلص من المنتصر، أجلس الأتراك على عرش الخلافة خليفة ضعيفاً مستسلماً لهم واستعادوا تحت رايته ما حاول المنتصر أن ينتزع منهم السلطة والسلطان، ولقد امتدت يد الأتراك بالاضطهاد، قتلاً ونفياً وسجناً وحرماناً الى حاشية الخليفة السابق المنتصر وتصاعدت مظالمهم وزاد استبداهم بالخلفاء فلم يكفهم ما أظهره الخليفة المستعين من ضعف وخضوع فخلعوه، ثم قتلوا فشاع في الناس رعب وفزع. فالملك قد اقتلوه كل من (وصيف) و(بغا) أما نصيب الخليفة (الأمام) فهو نصيب الضيف أما الرعية فنصيبها الرعب والفزع والحرمان [٢٥].

وبعد المستعين تولى الخلافة، المعتز بالله الزبير بن جعفر المتوكل(٢٥٥-٢٥٢هـ/٨٦٦-٨٦٩م) فكان مصيره نفس مصير المستعين خلعوه، وحبسوه، ثم قتلوه في سجنه بعد خلعه بستة أيام وبعد المعتز ولي الخلافة المهتدي بالله (٢٥٦-٢٥٥هـ/٨٦٩-٨٧٠م) فراودته مطامع التغير والعدل التي راودت الخليفة المنتصر، بل لقد تطلع الى أن يكون في بني العباس كما كان عمر بن عبد العزيز (١٠١-٦٢/٧٢٠-٦٨١م) في بني أمية وقال لخاصة أقربائه: يا بني هاشم دعوني حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز، فأكون فيكم مثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية [٢٦] ولما استشعر الناس بما يبيت قادة الأتراك ضد المهتدي حاولوا الحركة لمساندة الخليفة الراغب في العدل والتغير، وكان توزيع الرقاع (المنشورات) الداعية لمساندة الخليفة واحد من مظاهر حركتهم هذه وفي واحد من هذه المنشورات التي وزعت عندما شرع الأتراك في خلعه وتعذيبه كتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم: يا معشر أدعوا الله لخليفتكم العدل الرضي، المضاهي لعمر بن الخطاب أن ينصره على عدوه، ويكفيه مؤنة ظالمة ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه، فأن الموالي قد أخذوه بان يخلع نفسه، وهو يعذب منذ أيام رحم الله من أخلص النية ودعا وصلى على محمد، صلى الله عليه وسلم [٢٧].

بل أن قطاعاً كبيراً من عامة الجند قد حاولوا الدفاع عن الخليفة المهتدي، ضد قادتهم الذين استأثروا دونهم بالعطاءات والاقطاعات، ووجه هؤلاء الجنود (رسالة الى المهتدي شكوا فيها سوء حالهم، وتأخر أرزاقهم وما صار من الاقطاعات الى قوادهم التي أجحفت بالضياع والخراج وما

صار لكبرائهم من الزيادات من الرسوم القديمة مع أرزاق النساء والدخلاء الذين استخدموا أكثر أموال الخراج) .

ثم تجمعوا وتقدموا بمطالبهم:-

١-رد السلطة للخليفة.

٢-ورد رسومهم الى ما كانت عليه أيام المستعين بالله.

٣-وضع نظام جديد لتنظيمهم.

٤-إسقاط أنصبة النساء والزيادات والمعاون من عطاء القواد.

٥-وأن لا يدخل الموالي في سلك (الملتزمين)-(القبالات) أي الوسطاء بين الدولة والفلاحين، وكانوا بمثابة الاقطاعيين.

٦-وأن يكون عطاء الجند كل شهرين.

٧-أبطال الاقطاعات التي منحت للقواد [٢٨].

لكن قادة الأتراك نجحوا، فأوقفوا تحرك العامة، واحتووا حركة الجند وتجمعهم ثم قتلوا الخليفة المهتدي بالله بعد خلافة لم تتعد أحد عشر شهراً. على هذا النحو كانت حالة الدولة.. والى هذا الحد بلغ تجبر قادة الأعاجم الأتراك.. لقد سدوا على الخلفاء المصلحين مسالك الإصلاح، وأغلقوا السبل أمام كل من راودته آمال الإصلاح من خلال جهاز الدولة، بعد أن سيطروا عليه السيطرة كلها واستبدوا بشئونه كل الاستبداد وعندما أغلقت ابواب الإصلاح ودعاته فتحت (السبل الكثيرة) أمام الثورة والثوار... لقد بدأت ساحات المجتمع وأقاليمه تشهد، منذ تخلص الأتراك من الخليفة المنتصر، اندلاع الانتفاضة والتمرد والثورات التي قادها، على وجه الخصوص، ثوار علويون [٢٩].

ففي سنة ٢٤٨هـ ثار بالكوفة، أبو الحسين يحيى بن عمر بن الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد بن جعفر بن أبي طالب.

وفي سنة ٢٤٩هـ بدأت الجولة الأولى للثورة التي قادها علي بن محمد ثورة الزنج والتي استمرت حتى سنة ٢٧٠هـ.

وفي سنة ٢٥٠هـ ثار بطبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب وامتدت ثورته الى جرجان، واستقرت دولته بها حتى سنة ٢٧٠هـ وكذلك ثورة محمد بن جعفر بن الحسن سنة ٢٥٠هـ وثورة احمد بن عيسى بن علي... بن

أبي طالب، وكذلك ثورة يقزوين ثار بها الحسن بن إسماعيل.... بن أبي طالب سنة ٢٥٠هـ... والى كثير من الثورات.

لقد أدى اندلاع هذه الثورات، من جانب، وانتشار ظاهرة التجزئة والإقليمية وانسلاخ الولايات والأقاليم عن الخلافة المركزية من جانب آخر الى ضعف الحركة التجارية والدولية التي تتخذ المنطق طريقاً لها، الأمر الذي أضعف قواها الاجتماعية ، ويحكم المصالح والاستنارة واتساع الأفق، فان طليعة القوى العاملة على وحدة الدولة واستكمال قسمات الشخصية القومية لرعيتها، فنزل ذلك سلبية على المد القومي، وتحول بخطه البياني من حركة الصعود الى حركة الهبوط... وحدث نفس الشيء مع القسمة العقلانية للحضارة العربية الإسلامية ، ففي دولة العسكر الأتراك الغربية عن روح القومية العربية انتكس الطابع العقلاني مع انتكاسة الوجه الثاني للعمل وهو الطابع القومي فبدأت بذلك مرحلة التوفق فالجمود، فالتراجع للحضارة العربية الإسلامية، وانفتحت من جبهتها الثغرات التي أغرت بها أعدائها التاريخيين التقليديين...

الغزوات التي شنها الغرب الأوربي على الوطن العربي

ومر قرنان من الزمان- الرابع والخامس الهجريين- العاشر والحادي عشر الميلادي- قبل أن تبدأ ثانيه الغزوات الخطيرة والطويلة والعنيفة التي شنها الغرب الأوربي على الوطن العربي، تحت شعارات المسيح وأعلام الصليب، وفي هذين القرنين كانت بعض الدويلات الإقليمية، والعربية منها بخاصة، قد عوضت بقوة وطابعها القومي وعمقها الحضاري وقسمتها العقلانية، بعض ما افتقدته الأمة نتيجةً ما أصاب السلطة المركزية في بغداد من ضعف وعجمة وتخلف وجمود بلغ ذروته عندما خضعت هذه السلطة، واقعياً وعملياً وحتى رسمياً، لتسلط دويلات انفصالية مثل البويهيين (٣٣٤هـ-٩٤٥م) والسلاجقة (٤٤٧هـ-١٠٥٥م) وفي مقدمة هذه الدول التي أبطأت بدخول الحضارة العربية الإسلامية دور الانحطاط، وناوشت الغزاة المتأهبين فأجلت اجتياحهم لقلب الوطن العربي.

الدولة الفاطمية (٢٩٧-٥٦٧هـ/٩٠٩-١١٧١م) والدولة الحمدانية (٣٣٣-هـ/٩٤٤-١٠١٥م) في الشام... ولكن هذا الأمر كان في أطار التأجيل

والأبطاء، لا في أطار التجديد والانبعاث الذي يعيد البياني لظاهرة الحضارة العربية الإسلامية ودولتها من الهبوط الى الصعود. والصعود المستمر [٣٠].

لأن الدولة الحمدانية لم تعدو أن تكون أمارة صغيرة وقفت بها طاقاتها عند حدود الصمود الفكري القومي، ومناوشة البيزنطيين واستنزافهم وتأخير اجتياحهم للشام أمام الفاطميين ، فرغم إمكاناتهم العظيمة، وانجازاتهم الكبيرة، والطابع القومي والعقلاني لتجربتهم، إلا أن مذهبهم الشيعي قد جعل اجتماع الأمة، واغلبها سنية المذهب- حولهم أمراً بعيد الاحتمال... وهكذا كان الفاطميون والحمدانيون ودويلات أخرى لعبت أدوار متشابهة وقريبة، بمثابة الصحوة التي تسبق وفي هذه الصحوة واصل السلاجقة (٤٧٠-٧٢٨هـ/١٠٧٧-١٣٢٧م) مهمة الحمدانيين في قتال البيزنطيين وأحرزوا انتصاراً كبيراً ضدهم في معركة (منزكرت) (ملاذكرد) (٤٦٣هـ-١٠٧١م) واسروا يومهاالإمبراطور البيزنطي (رومانوس ديوجنس) (١٠٦٨-١٠٧١م) كما عاد الفاطميون فواصلوا تهديد ايطاليا بعد أن اتخذوا من (صقلية) (٣٠٤هـ-٩١٧م) قاعدة لهجماتهم البحرية ضد الشواطئ الجنوبية لأوربا فوصلت حملاتهم الى (البندقية) و(جنوى) (٣٢٣هـ-٩٣٥م) [٣١].

الفكر العربي الإسلامي العقلاني المستنير يهدد أوربا

وجدت أوربا، وعلى رأسها البابا والكنيسة الكاثوليكية، أنهم أمام خطر ذي شعبتين: مناوشات حربية وغزوات بحرية متقطعة... وهم قد أفلحوا في صدها.. ولكن الذي لم يفلحوا في صده كان ذلك الخطر المتمثل في الفكر العربي الإسلامي العقلاني والمستنير... فلقد كانت الدوائر الكنسية الكاثوليكية في أوربا – وهي وحدها دوائر الفكر والثقافة هناك- تقيم أمنع الحواجز ضد ما كانت تزخر به المنطقة العربية من علوم وفنون وأفكار ونظريات [٣٢]... كانت أوربا تعيش قمة ظلام عصورها المظلمة على حين كانت القاهرة تنعم بأضخم مكتبة عرفتها عواصم تلك القرون، وبدور الحكمة والمراصد والفكر العقلاني والجدل النظري الذي يعلى من قدر العقل فيحقق المعنى الحقيقي لإنسانية الإنسان.

ولكن هذه الدوائر الكنسية، التي أفلحت في صد جيوش العرب الغازية، قد أخفقت في تحسين العقل الأوربي ضد الفكر العربي، فحدثت

وعملت عملها قوانين (السنة) الكونية التي تكررت على مر العصور: تحدث الصراعات المسلحة وتنتهي، وتنجح الحملات الحربية وتخفق، وتقوم الدول وتضمحل، ولكن الأبقى والأدوم والأفعل هو، دائماً وأبداً، التأثيرات الفكرية التي تستفيدها الأمم [٣٣] والشعوب من خلال عنف هذه الصراعات... ولذلك فأن التاريخ يسجل أن النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي هو الذي شهد طلائع التأثر الأوربي بالفكر العربي، وهو التأثر الذي أصبح المنطق الحقيقي الذي انطلقت منه أوربا، عبر قرون عدة وأحداث كبرى الى عصر النهضة [٣٤].

علوم العرب تقتحم ايطاليا

في تلك الفترة اقتحمت علوم العرب على الايطاليين أسوار جامعة (بولوينا) فبدأت عنايتها بهذه العلوم سنة ١٠٧٦م...

ووجدت المرجعية الكنسية في أوربا نفسها ودولتها مهددة بخطر عظيم.. فالجيوش العربية تترئ على ايطاليا وتهدد روما ذاتها.. والفكر العربي العقلاني والمستنير يقتحم الأسوار التي فرضتها على العقل الأوربي لعدة قرون، وهو يفصل ذلك من الأندلس غرباً، ومن الجزر التي احتلها العرب في البحر المتوسط تجاه الشاطئ الجنوبي... ولاح في الأفق أن روما وأوربا تواجه المأزق الذي واجهته مكة يوم أن زحف عليها الأحباش لاحتوائها عام غزوة الفيل... ويومئذ استجمعت الكنسية ما لديها من طاقات، وشحذت ما في جعبتها من أسلحة واستنهضت أوربا الإقطاعية لانتهاز الفرصة، ومواجهة العرب قبل أن تتحول الصحوة التي يعيشونها الى نهضة تتجدد بها حضارتهم إذا هم أبقوا على ما بين آسيا الصغرى والأندلس، وحولوا البحر المتوسط الى بحيرة عربية، واقتلعوا الخطر التاريخي الذي احترف تهديدهم عبر تاريخهم الطويل [٣٥]...

ومع إيماننا بان صراعات الأمم والشعوب والحضارات لا تتفق أسبابها عند ردود الأفعال والذين يفسرونها هذا التفسير السطحي لا يبصرون ما في الأعماق –لكننا، في ذات الوقت يجب أن نعطي اهتماماً كبيراً لما تولده المخاطر عندما تحيق الأمم الأصلية ذات [٣٦] الحضارة والتراث، ما تولده هذه المخاطر من طاقات تجعل هذه الأمم، التي تمنحها

هذه الحضارة تسترجع عناصر قوتها وتجدد شباب حياتها، ثم تنهض لتحدي الخطر وكسر الطوق الملتف حول عنقها والمهدد لها بالفناء [٣٧].

نحن نتخذ من هذا العامل نموذجاً وسبيلاً يعفينا من سرد أسباب كثيرة ، وقفت خلف المد الاوربي الذي تمثل في الحروب الصليبية على الشرق العربي، ذلك المد الذي أرادت به أوربا أن تسترجع ما تحرر من الشرق تحت رايات الإسلام [٣٨]:

١-الجيوش العربية بأساطيلها قد حولت البحر المتوسط الى بحيرة عربية خاصة وخالصة.

٢-المدن التجارية الأوربية وخاصة الايطالية منها لم تحرم فقط من امتيازاتها التقليدية في التجارة العالمية عبر طرقها الشرقية العربية وانما وطئت أرضها أقدام الفاتحين العرب.

٣-النمط الفكري المتخلف الذي سجنت فيه الكنسية الكاثوليكية قارتها الأوربية قد سددت العقلانية العربية الإسلامية إليه السهام. ومن هنا كانت نهضة الكنسية الكاثوليكية [٣٩].

٤- بدأت طلائع الحروب الصليبية على أرض الأندلس، وسقطت (طليطلة) بيد الفونسو السادس (٤٧٨هـ-١٠٨٥).

٥-بعد خمس سنوات (صقلية) بيد النورمان (٤٧٣هـ-١٠٩٠م).

٦- وفي نفس التاريخ(سنة ١٠٩٠م)سقطت(مالطة) وانحسر عنها الحكم العربي [٤٠].

(العصور الوسطى تشهد أبشع حملات الغزو الاستيطاني التي عرفها التاريخ)

ففي خلالها قذفت أوربا أرض الشرق العربي بخمس وعشرين حملة حربية مولها التجار وقادها فرسان الإقطاع وزحف في ركبها الغوغاء، وتضامنت في قذف الشرق بها المماليك والأمارات والولايات [٤١]...

ولقد نجحت هذه الحملات حيناً، فكونت الدول والأمارات الاستيطانية اللاتينية بأرض الشام وفلسطين، حتى استطاعت زمنا، تحقيق الهدف الاستراتيجي للغزاة فشقت الوحدة الأرضية للوطن العربي وعزلت مشرقة عن مصر – القلب- والمغرب، بكيانات احتلت الأرض الفلسطينية التي

تصل ما بين البحر المتوسط وخليج العقبة ثم أخذت تهدد مصر حتى فرضت الجزية عليها زمناً، وأقامت لفرسانها مركزاً على أبواب القاهرة وبيدهم مفاتيحها (٤٢).

نجحت هذه الحملات عندما نفذت الى الوطن العربي من تلك الثغرة التي أفقدته التوازن الحضاري الضروري والمطلوب فالعرب قد نجحوا في التحرر من البيزنطيين (٤٣) وفي تهديد أوربا في مواضع عندما امتلكوا: السبق والعقل، ودان لهم: العقل والقوة ووظفت القوة طاقتها في خدمة العقل... فلما اعتمد العباسيون على القوة غير العربية، وتكون الجيش من المماليك، زال الانسجام بين العقل والقوة، فتحولت القوة الضاربة وهي غير قومية على العقل العربي فكانت السلطة العسكرية فكرياً والمستبدة سياسياً والتي أصابت الحضاري وعصره الذهبي بانتكاسة لم يتلخص العرب من آثارها (٤٤) حتى الان .

الفروسية العربية تواجه الفرسان الصليبيين

وأمام هذا الخطر المدمر والبربري لهذا الاستعمار الاستيطاني انتفض كيان الشرق العربي فأفرز عوامل القوة والمقاومة التي تصدت الفرسان الإقطاع الأوربي حتى هزمتهم وقذفت بهم وبكياناتهم الغربية الى مواطنهم الأصلية، وخلف هذه الانتفاضة وفيها كان الفعل والتأثير لتلك القسمة التي ميزت شخصية الإنسان العربي أمام المخاطر والتحديات وهي القسمة التي بلغت مبلغ القانون الذي حكم ضد أعدائه فهو يبصر سر تفوق الخصم، ثم يسعى لامتلاك هذا السر، فيضيف فاعليته وتأثيره الى سلطان الحق المتمثل في عدالة قضيته.. وبذلك تجتمع لديه إمكانيات النص في هذه الصراعات (٤٥).

ولقد كانت الفروسية الإقطاعية الأوربية في مقدمة أسباب التفوق الصليبي على العرب في ذلك الصراع... فأوربا المتخلفة حضارياً كانت تمتلك مؤسسات لفروسية أفرزها عصرها الإقطاعي، ورسخت تقاليدها في الحرب، وبرزت وحشيتها في حملاتها ضد العرب والمسلمين كان شرف الفروسية والفارس عندهم يتمثل في الإخلاص والطاعة والشجاعة، وكانت أهدافها: حماية السادة، والكنيسة، وقتال الكفار (المسلمين)... ولقد ساعدت

الحروب الصليبية على أعلاء شأن الفارس والفروسية لدى أوربا في ذلك العصر حتى أصبح الفارس يمثل كل شيء.

وبعبارة أخرى للمؤرخ الناقد أسامة بن منقذ وهو معاصر لتلك الأحداث (٤٦): فأن رد الفرنج خذلهم الله ليس فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ولا عندهم تقدمه ولا منزلة عالية إلا للفرسان ولا عندهم ناس إلا الفرسان فهم أصحاب الرأي والقضاء (٤٧).

ومن هنا صحت عزيمة المشرق في انتفاضة ضد هذا الخطر على امتلاك سلاح الفروسية وإقامة مؤسساتها حتى يقهر بها خصومه ويجلى بواسطتها غزاته، فلا يغل الحديد إلا الحديد.

فنشأت في الوطن العربي أنظمة للحكم كان قوامها مؤسسات الفروسية وعمادها الجيش الذي تكون في معسكراتها... تلك المعسكرات التي كان يجلب إليها المماليك الصغار، حيث ينشئون نشأة حربية صرفة وكاملة، لا صلة بينها وبين حياة المدنيين بشواغلها ورفاهيتها، ومع حياة الحرب وتدبيراتها كانوا يتعلمون سجايا الفروسية العشر: التقوى والشجاعة، والصبر، ومراعاة الجوار، والمروءة... ولقد أصبحت مؤسسات الفروسية العربية الإسلامية هذه دولا ثم نمت من خلال دولها وكانت طلائعها في الدولة الزنكية التي أسسها عماد الدين بن محمود الزنكي (٥٢١-٤٥١هـ/١١٢٧-١١٤٦م) بالموصل (٥٢١هـ-١١٢٧م) وبفرسانها بدأ الخط البياني في الصراع (العربي الصليبي) يتجه الى صالح العرب والمسلمين فلقد أحرز هؤلاء الفرسان أول انتصارات عربية ضد الصليبين عند (حصن الأثارب) بين حلب وأنطاكيا و(حصن حارم) تجاه أنطاكيا.. وفي عهد السلطان نور الدين الشهيد (٥٦٩-٥٤١هـ/١١٤٦-١١٧٣م) الذي خلف عماد الدين حققت الدولة انتصاراتها فحررت أمـارة ( ) الصليبية، ونقلت عاصمتها الى حلب كي تكون على مشارف الأرض المحتلة، واستطاعت تطويق الكيانات الصليبية في المشرق والشمال (٤٨).

وبمساعدة هذه الدولة هزمت مصر غزوات الجيش الصليبي أواخر الحكم الفاطمي وعندما انفرد جيشها، وقائده صلاح الدين الأيوبي بحكم مصر تم تطويق الكيانات الصليبية من الجنوب أيضاً، ولم يبق أمام هؤلاء الغزاة المستوطنين دون حصار سوى شاطئ البحر المتوسط، الذي منه

وفدوا الغزاة لقلب الوطن العربي وعلى امتداد سنوات الحكم الأيوبي والمملوكي تواصلت المعارك التي حولت أرض الوطن العربي الى بؤرة دائمة التفجير والغليان... وتحولت أسماء قرى صغيرة وبقاع مجهولة الى نجوم وشهب لمعت في صفحات التاريخ بما دار عليها وفيها من معارك وملاحم في هذا الصراع الحضاري الطويل... كما شاركت أوربا جمعاء في الغزو فلقد أسهم العرب جمعاء في التصدي وامتدت ساحات اللقاء من الرها الى الكرك الى حطين والقدس وعسقلان والإسكندرية والمنصورة ودمياط وقلعة بانياس... الخ كان الصليبيون يريدون أعادة إمبراطوريتهم إمبراطورية الغرب التي أقامها الإسكندر المقدوني بالشرق، قبل الميلاد ويجاهدون لمحو الانتصار التحرري الذي أحرزه العرب بفتوحات الإسلام.. على حين كان العرب يواجهون التحدي بروح المدافع عن كيانه وبقائه أمام الاستعمار الصليبي الاستيطاني... وسيطرت على جو المعارك وسمائها علامات استفهام لدى الفريقين نكون أو لا نكون؟ وبلغة مؤرخ وشاهد عيان هو أبن شداد (٥٣٩-٣٢هـ/١١٤٥-١٢٣٤م) (فلقد علمت كل طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس، معدة النفس)[٤٩].

الفروسية العربية الإسلامية تقطف ثمار النصر

وبعد قرابة القرنين من الصراع المشتعل والمتواصل أخذت مؤسسات الفروسية العربية الإسلامية تقطف ثمار النصر النهائي في هذا الصراع الطويل... فأقتحم الجيش المصري بقيادة السلطان الاشرف بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣هـ /١٢٩٠-١٢٩٣م) أسوار عكا في مايو سنة ١٢٩١م... ثم سقطت صور وصيدا وبيروت وانطرطوس وكان سقوط آخر قلاع الفرسان الداوية الصليبية في (عتليت) منتصف سنة ١٢٩١م ونهاية واحدة من أطول وأعنف جولات الصراع التاريخي والحضاري بين العرب والغرب...

وهي الجولة التي جاءت أوربا فيها باحتواء آمل الشرق حضارياً وطامعة باستغلاله اقتصادياً وساترة هذه الآمال والمطامع برداء الدين وصلبان المسيح عليه السلام...

وفي هذه الجولة أكدت هذه الأمة، مرة أخرى بمؤسسات الفروسية ودولها التي أفرزتها ودفعت بها الى ساحة الصراع أكدت صدق القانون

الذي حكم هذا الصراع التاريخي الحضاري، عبر عصوره، وفي جميع ميادينه، وهو القانون الذي أصبح سمة من سمات شخصية هذه الأمة: فأمام الخطر، وفي مواجهة المخاطر، وتجاه التحدي، يبحث الإنسان العربي ويفتش حتى يبصر سر تفوق الخصم، يسعى لامتلاك هذا السر، ويضيف قوته الى قوة الحق المنبعثة من عدالة قضيته، ثم يقتحم ميدان الصراع لينتزع حقه من غاصبيه، مثبتاً، دائماً وأبداً، أنه إيجابي، يجدد ذاته، ويتجاوز سلبياته أمام المخاطر والتحديات (٥٠).

الخلاصة

والآن... وبعد هذه التي صحبنا فيها أمتنا العربية على درب تطورها الحضاري، وفي مسيرتها عبر التاريخ... وبعد أن رأينا:-

- كيف اندفعت بالفتوحات الكبرى، ذات الطابع التحرري، لتجابه وتقهر التحدي الذي ضيق عليها الخناق، حتى لقد كاد أن يحتويها ويزهق منها الأنفاس... فحررت أرضا، وفتحت في ثمانين عاماً أكثر مما فتح الرومان

في ثمانية قرون، وتولت زمام قيادة الشرق عندما عجز عن ذلك الفرس الساسانيون.

• وكيف صاغت، مبكراً، شخصيتها القومية، وقدمت، منذ قرون، تلك الصياغات الفكرية القومية العربية، على أساس حضارية غير عرقية.. فجابهت بها تيارات التعصب الشعوبية والعصبية العربية الجاهلية.

• وكيف ظهرت مؤسسات الفروسية العربية الإسلامية، التي جابهت بها وهزمت أعجب وأعنف وأطول موجات الغزو التي شهدتها العصور الوسطى، تلك التي عبرت بحر الصليب.

• وأخيراً.. كيف انتفضت مستيقظة في عصرها الحديث، متسلحة بالتجديد، والعقلانية، والاستنارة، والأصالة... كي تدفع الخطر(القديم- الجديد) خطر الجمود الذي يفتح للعدو الثغرات.. وخطر الذوبان في الحضارة الغربية، الذي يريد أن ينهى ذلك الصراع الحضاري التاريخي لصالح اعداء هذه الأمة التقليدية.

وبعد أن أصبحت أمتنا على هذا الدرب الذي واجهت من فوقه تلك التحديات.. أن خلاصة تلك الرحلة تستدعي أكثر من كلمات، هي ذات القانون الذي حكم صراع هذه الأمة ضد أعدائها، عبر التاريخ الطويل لهذا الصراع.

أنه صراع قديم.. وطويل.. وعنيف.. ولا يمكن لعين الباحث أن تخطئ طابعه الحضاري، وفي كل المنعطفات الخطرة التي تصاعدت فيها التحديات أمام هذه الأمة، كانت دائماً وأبداً، تستجمع إمكانياتها وتحشد قواها، وتجدد ذاتها وسرعان ما تتقدم لمجابهة التحدي بخير وبأقوى ما في ترسان أسلحتها وقدراتها وبما تكتشفه من أسرار تفوق الأعداء.

فأمام الصراع الطويل والقاسي، وتجاه التحدي، كان التجديد مع الأصالة هو طوق النجاة لهذه الأمة التي صرعت من الأعداء وصرعت من الحضارات أكثر مما حدث لأمة أخرى طوال تاريخ الإنسانية الطويل، وهذا هو سر بقائها دون الكثير من أعدائها، وسر احتفاظها اليوم، إمكانيات العودة مرة أخرى الى الساحة الإنسانية، أمة كبرى، ذات حضارة متميزة، وإمكانيات حقيقة وغنية للإسهام خارج الحدود.

تلك هي الخلاصة..... خلاصة قصة: العرب والحضارة.

المصادر والمراجع

* آدم متز:
١- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة (بيروت سنة ١٩٦٧م).
* أبن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن ابي مكرم الجزري (ت٦٣٠هـ).
٢- الكامل في التاريخ، دار صادر (بيروت، ١٩٦٥م)
* أبن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي (ت٨٠٨هـ).
٣- المقدمة، طبعت (القاهرة سنة ١٣٢٢هـ).
* أبو شامة:
٤- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، طبعة (القاهرة سنة ١٢٨٧هـ).
* أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم
٥- كنات الخراج، طبعة (القاهرة ١٣٥٢هـ)
* احمد مختار عمر:
٦- تاريخ اللغة العربية في مصر، طبعة (القاهرة سنة ١٩٧٠م)
* أسامة بن منقذ:
٧- الاعتبار، تحقيق، فيليب حتى، طبعة (برنستون سنة ١٩٣٠م)
* التهانوي:
٨- كشاف اصطلاحات الفنون، طبعة (القاهرة ١٩٦٣م)
* الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ)
٩- البيان والتبيين، طبعة (بيروت سنة ١٩٦٨م)
١٠- رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة (القاهرة سنة ١٩٦٤م)
* حتى فيليب:
١١- تاريخ العرب، طبعة (بيروت سنة ١٩٥٣م)
* الدجيلي عبد الصاحب:
١٢- الشعوبية، طبعة (النجف سنة ١٩٦٠م)
* الطبري، محمد بن جرير الطربي (ت٣١٠هـ)
١٣- التاريخ، طبعة دار المعارف (القاهرة د-ت)
* عبد الجبار احمد قاضي القضاة:
١٤- فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق: فؤاد سيد، طبعة (تونس سنة
١٥- المغني في أبواب التوحيد والعدل، طبعة (القاهرة د-ت)
* عبد المجيد عابدين:

١٦- البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب اللمقريزي الملحق، طبعة (القاهرة سنة ١٩٦١)
* الكواكبي عبد الرحمن:
١٧- الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق: د.محمد عمارة، طبعة (بيروت سنة ١٩٧٥م)
* لوثروب ستودارد:
١٨- حاضر العالم الإسلامي، ترجمة: عجاج نويض، وتعليقات: شكيب أرسلان، طبعة (بيروت سنة ١٩٧١م)
* الماوردي:
١٩- أدب الدنيا والدين، تحقيق: مصطفى السقا، طبعة (القاهرة سنة ١٩٧٣م)
* محمد عمارة:
٢٠- العروبة في العصر الحديث، طبعة (القاهرة ١٩٦٨م)
٢١- الأمة العربية وقضية التوحيد، طبعة (القاهرة ١٩٦٦م)
٢٢- نظرة جديدة الى التراث، طبعة (بيروت سنة ١٩٧٤م)
٢٣- العرب والتحدي، طبعة (الكويت سنة ١٩٨٠م)
* المسعودي أبي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت٣٤٦هـ)
٢٤- مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة (القاهرة سنة ١٩٦٦م)
* المقريزي: تقي الدين احمد بن علي (ت٨٤٥هـ)
٢٥- الخطط، طبعة دار التحرير (القاهرة د-ت)
* مكسيموس مونروند:
٢٦- تاريخ الحروب المقدسة في الشرق، ترجمة: مكسيموس مظلوم، طبعة (القدس سنة ١٨٦٥م)
* هانوتو جبريل:
٢٧- الإسلام والرد على منتقديه، مقالات منشورة ضمن هذا الكتاب، طبعة (القاهرة ١٩٢٨)
* أوليري:
٢٨- مسالك الثقافة الإغريقية الى العرب، ترجمة: د. تمام حسان، طبعة الأنجلو (القاهرة
* أبن رشد أبو الوليد محمد بن احمد (ت٥٢٠هـ)
٢٩- تهافت التهافت، طبعة (القاهرة سنة ١٩٠٣م)
٣٠- فصل المقال، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، طبعة (القاهرة سنة ١٩٧٢م)

الهوامش

(١) ينظر: آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة مجيد عبد الهادي (طبعة بيروت ١٩٦٧)، ١/ ١٠٥ وهو ينقل عن كتاب البيروني، تحقيق: ماللهند من مقولة، طبعة سخاو- ص٢٨٠

(٢) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي، الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق، محمد عمارة، طبعة بيروت، ١٩٧٥، ص٢٣٨

(٣) ينظر: أبن خلدون عبد الرحمن الحضرمي ت:٨٠٨هـ، المقدمة، طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢هـ، ص١٢٠.

(٤) ينظر: الجاحظ، البيان والتبين، تحقيق طبعة بيروت سنة ١٩٦٨، ٤٠٥/٣.

(٥) ينظر: محمد عمارة، العرب والتحدي، مطابع اليقظة ط(الكويت ١٩٨٠م)، ص١٢٣٠١٢٤، الدجيلي عبد الصاحب، الشعر، طبعة النجف ١٩٦٠م، ط٤.

(٦) محمد عمارة، نظرة جديدة الى التراث، طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م، ص٦٧.

(٧) ينظر: محمد عمارة، العروبة في العصر الحديث، طبعة القاهرة ١٩٦٨م، ص١١٢-١١٤.

(٨) ينظر: محمد عمارة، العرب والتحدي، ص١٢٤.

(٩) ينظر: الجاحظ عبد الجبار احمد قاضي القضاة، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق: فؤاد سيد، طبعة تونس سنة ١٩٧٢م، ص٣٧٣.

(١٠) ينظر: الجاحظ عمرو بن بحرت ٢٥٥هـ(رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون طبعة(القاهرة ١٩٦٤م) ٩/١.

(١١) ينظر: الصدر نفسه، ١٢٦/٢.

(١٢) ينظر: المصدر نفسه، ٢٨٣/١.

(١٣) ينظر: محمد عمارة، العرب والتحدي، ص١٢٦.

(١٤) ينظر: فليب، تاريخ العرب، طبعة(بيروت سنة ١٩٥٣م)، ص٧٠.

(١٥) ينظر: محمد عمارة، العرب والتحدي، ص١٢٨.

(١٦) ينظر: المسعودي ابي الحسن علي بن الحسي (ت٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعاون الجوهر، طبعة (القاهرة ١٩٦٦م)، ٦٦/٢.

(١٧) ينظر: الماوردي ابو الحسن،ادب الدنيا والدين، تحقيق: مصطفى السقا، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣، ص٣٤.

(١٨) ينظر: محمد عمارة، العرب والتحدي، ص١٣٠.

(١٩) ينظر: عبد الجبار بن احمد، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص٣٠٢-٣٠٣، المقريزي، الخطط، طبعةدار التحرير، القاهرة د-ت، ٢٧١/٣.

(٢٠) ينظر: آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ط(بيروت ١٩٦٧) ، ٣٨١/١-٣٨٣.
(٢١) ينظر: المسعودي، مروج الذهب، ٤٢٦/٢.
(٢٢) ينظر: المسعودي، المصدر نفسه، ٤٢٦/٢.
(٢٣) ينظر: المسعودي مروج الذهب ومعاون الجوهر، ٤٢٦/٢-٤٢٨.
(٢٤) ينظر: المسعودي، مروج الذهب، ٢٢٦/٢.
(٢٥) ينظر: محمد عمارة العرب والتحدي، ص١٣٤.
(٢٦) ينظر: المسعودي مروج الذهب ٤٥٧/٢-٤٦١، محمد عمارة العرب والتحدي، ص١٣٥.
(٢٧) ينظر: محمد عمارة، العرب والتحدي، ص١٣٥.
(٢٨) ينظر: الطبري محمد بن جريرت، ٣١٠هـ/ التاريخ، طبعة دار المعارف (القاهرة) ٤٤٣/٩
(٢٩) ينظر: محمد عمارة، العرب والتحدي، ص١٣٧.
(٣٠) ينظر: محمد عمارة، العرب والتحدي، ض١٣٩.
(٣١) ينظر: محمد عمارة،العرب والتحدي، ص١٤٠.
(٣٢) الماوردي ابو الحسن، ادب القاضي، تحقيق: محمد هلال السرحان، طبعة بغداد سنة ١٩٧١م، ٢٧٤/١-٢٧٥.
(٣٣) ينظر: محمد عمارة، العرب والتحدي، ص١٤٠-١٤١.
(٣٤) التهانوي، اكتشاف اصطلاحات الفنون، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م، ٤٦/١-٦٢.
(٣٥) ينظر: مكيسموس، تاريخ الحروب المقدسة في المشرق، ٨٠/١.
(٣٦) محمد عمارة، العرب والتحدي، ص١٤٧.
(٣٧) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي، الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م، ص٢٣٨.
(٣٨) ينظر: أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، طبعة القاهرة ١٢٨٧هـ، ٣٤٠/١.
(٣٩) ينظر: محمد عمارة، العرب والتحدي، ص١٤٣-١٤٤، مكييموس، تاريخ الحروب المقدسنة، ٧٦/٢.
(٤٠) ينظر: هانوتوجبريل: الإسلام والرد على منتقذية، مقالات منشورة ضمن هذا الكتاب، طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢م، ص٢٧، محمد عمارة، الأمة العربية وقضية الوجيه، مطبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م، ص٩٤-٩٥، لوثروب ستودارد: حاضر العالم

الإسلامي، ترجمة عجاج نوبهض، وتعليقات شكيب أرسلان، طبعة بيروت سنة ١٩٧١م، ٩٢/٤.

(٤١) ينظر: مكيسموس مونروند، تاريخ الحروب المقدسة في المشرق، ترجمة مكسيموس مظلوم، طبعة سنة ١٨٦٥م، ٨٠/١-٨١، أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين.

(٤٢) ينظر: محمد عمارة، العرب والتحدي، ص١٤٥.

(٤٣) ينظر: أبو يوسف، الخراج، طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢هـ، ص١٣٨-١٣٩.

(٤٤) ينظر: أبن الأثير عز الدين الجزري ت ٦٣٠هـ، الكامل في التاريخ، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م، ٦٧/٢-١٢٣.

(٤٥) ينظر: محمد عمارة، العرب والتحدي، ص١٤٨.

(٤٦) ينظر: أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق: فيليب متى، طبعة برنستون ١٩٣٠، ص٦٤-٦٥.

(٤٧) محمد عمارة، الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية، طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م، ص٢٢.

(٤٨) ينظر: العرب والتحدي، ص١٥٠.

(٤٩) ينظر: العرب والتحدي، ص١٥١.

(٥٠) ينظر: محمد عمارة، العرب والتحدي، ص١٥٢.